الحياة والموت في زُهديّات أبي العتاهية (ت 213 هـ)

الدّكتور: بسّام البردان

قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب – جامعة الفرات – دير الزّور

ملخّص البحث:

يدور الحديث في هذا البحث عن الحياة والموت في زهديّات أبي العتاهية، وقد نهجت فيه نهجاً يقوم على استنطاق النّصّ، واستنتاج ما فيه من رؤى وأفكار كان يحملها الشّاعر ويعتقد بها حول هذه الثّنائيّة الكبيرة (الحياة والموت)؛ ولذلك عدت إلى ديوان الشّاعر وتتبّعت رؤيته الفكريّة لهذه الثّنائيّة، فوجدت أنّه كان يقف من الحياة موقفاً سلبيّاً، إذ كان ينهى عن الإقبال عليها، والتّمتّع بملذّاتها، ويعظ بعدم الغرور بها، وينهى عن تعظيمها، ويحثّ على التصبّر عليها، والالتجاء إلى الله فيها.

لكنّ موقفه من الموت كان رُهَابيّاً، فقد اجتهد في التّخويف منه تخويفاً فظيعاً، وكان لا ينفكّ يُذَكِّر به، ويُرعِبُ النّاس منه، ويرى فيه خراباً للدّيار، وتفريقاً للجماعات، وتشتيتاً للعلاقات، ويبدو أنّ تجربته في الحياة، وشعوره الدّائم بالموت، جعلاه يميل إلى بثّ الحكم والمواعظ في طيّات أشعاره الزّاهدة، فقد بدا واعظاً ومرشداً، يحثّ على فعل الخير، وترك الشرّ، والتّرفّع عن ملذّات الدّنيا، وعدم الغرور بمغرياتها، ويصوّر الموت شبحاً ماثلاً بين عيون النّاس أجمعين.

ويبدو لي أنّ أبا العتاهية كان مقتنعاً قناعة تامّة بهذه الرّؤى والأفكار الّتي كان يتناولها في شعره، ولم يكن منافقاً، يحبّ الحياة ويُظْهِرُ كُرْهَهُ لها، على نحو ما رأى بعض الباحثين، ولكن ربّما كانت نوازع نفسه البشريّة تدعوه في بعض الأحيان إلى استعذاب طعم الحياة، وإظهار الحبّ لها، بيد أنّه كان يواجهها مواجهة قويّة بذكر الموت وما يتبعه من حساب وعذاب، أو جزاء وثواب.

وعلى أيّة حال فقد قدّم لنا أبو العتاهية رؤيته الفكريّة في هذه الثّنائيّة المقلقة (الحياة والموت)، وسجّل لنا في شعره موقفه منهما، فكان زاهداً في الحياة، مُرَغِّباً بما يؤول إليه الإنسان بعد الموت.

الكلمات المفتاحيّة: (ثنائيّة – الحياة – الموت– الزهد – رُهَاب)

المقدّمة:

يبدو أنّ هذا الموضوع مغرٍ للباحث والمتلقّي على حدٍّ سواء، ولعلّه يكتسب أهميّته من جوانب متعدّدة تغري باختياره، والإقبال على دراسته، فهو موضوع جديد، لم يتناوله باحث من قبل عند أبي العتاهية، فيما أعلم، على الرّغم من أنّه دُرِسَ في الشّعر العربيّ عند أكثر من باحث من الباحثين[1]، كما أنّ محتواه مهمّ أهميّة بالغة للنّاس على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم، إذ يتناول قضيّة الحياة والموت، الّتي لا ينفكّ الإنسان العاقل من التّفكير بها، وذكرها، والتّفاعل معها، وكذلك فإنّنا من خلالها نستطيع أن نكشف عن إحساس الشّاعر الذّاتي بوجوده، وقلقه وخوفه من النّهاية الّتي سيؤول إليها، ثمّ إنّ هذه الدّراسة ستبيّن أنّ الشّعر العربيّ وشعراءه لم يكونوا مشغولين بمدح الملوك والخلفاء والأمراء فحسب، وإنّما كانوا يتأمّلون في وجودهم، ويفكّرون في

(1) ثمّة ثلاثة أبحاث وُسِمَت بهذا العنوان: (الحياة والموت)، وهي رسائل ماجستير، الأولى في جامعة الإسكندرية بمصر، عام 1968م، وهي (الحياة والموت في الشعر الجاهلي)، لمصطفى عبد اللطيف جياووك، وقد نهج فيها منهجاً يقوم على النظر في أغراض شعرية محدّدة، هي الرثاء والحماسة والحكمة، وجعل لكل غرض منها فصلاً خاصاً. أما الرسالة الثانية فهي لمنيف أحمد حميدوش، وعنوانها: (الحياة والموت في شعر الشريف الرضي)، وهي في الجامعة اللبنانية عام 2004م، وقد جعلها في بابين: تحدّث في الأول عن ثقافة الشريف الرضي، وأثرها في شعره، وفي الباب الثاني تناول قصيدة الرثاء عند هذا الشاعر، وقام بتحليلها، وتصنيفها وفق منزلة المرثيّ، ووفق الموضوعات أيضاً، ثم درس الصورة الفنية فيها، فكان . برأيي . غير موفّق في الملاءمة بين العنوان ومحتوى البحث. والرسالة الثالثة فكانت في جامعة دمشق عام 2010م، وهي لخليل عبد العال، وكانت بعنوان: (الحياة والموت في شعر صدر الإسلام). ولكنّ هذه الرسائل لم تتناول موضوع الحياة والموت على النحو الذي نهجته في هذه الدراسة.

حياتهم وموتهم، وغير ذلك من الحقائق والأشياء الّتي تشتمل عليها الحياة، وهم أيضاً يعبّرون عن رؤى النّفس البشريّة[1]، وما يواجهها في الكون والحياة، وهذا يقودنا إلى الحكم على أدبنا العربيّ بأنّه أدب سامٍ ملهم، يتشوّف إلى المستقبل، وينظر في صميم الأشياء، ويبحث في لباب حقائقها، معبّراً عن تجارب الشّعراء الذّاتية، على عكس مايرى بعض الباحثين[2].

ويبدو ممّا سبق أنّ الحاجة قويّة إلى تناول هذا الموضوع، ودراسته انطلاقاً من النّصوص الشّعريّة، الّتي أنتجها المبدعون من الشّعراء العرب على مرّ العصور؛ ولذا فإنّني عدتُ إلى نصوص أبي العتاهية الزّهديّة، وتأمّلت فيها، فكانت هذه الدّراسة.

ولعلّ ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو إكثار أبي العتاهية من ذكر هذه الثّنائيّة (الحياة والموت) في أشعاره الزّهديّة، وكذلك فإنّه قد بدا لي أنّ الشّعراء بعامّة يكونون، بملكاتهم الرّوحيّة والحدسيّة، أكثر قدرةً على الإحساس بمأساة الحياة والموت، إن صحّ التّعبير، وهم أكثر قدرةً على تصوير مصير الإنسان، وما يعانيه من هموم وأحزان خلال مسيرته في هذه الحياة، وهكذا كان أبو العتاهية، إذ اهتمّ اهتماماً كبيراً بمصير الإنسان، وبيّن جوانب من صراعه القاسي مع الموت في هذه الحياة، وبدا كأنّه فيلسوف يستمدّ أفكاره ورؤاه من الواقع والحياة[3].

([1]) انظر: ملحس، ثريّا عبد الفتّاح، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين، ، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص 67 وما بعدها.

([2]) انظر: الشّابّي، أبو القاسم، الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس: 1975م، ص 103 وما بعدها – والخياط، جلال، الشعر والزمن، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، سلسلة الكتب الحديثة (88)، بغداد: 1975م، ص 25 وما بعدها – وعبد الصبور، صلاح، قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة: 1968م، ص 34 وما بعدها – وإسماعيل، د.عز الدين، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص98 وما بعدها.

([3]) انظر: ولك رينيه، ووارين أوستن، نظرية الأدب، ترجمة: محيي الدين صبحي، ومراجعة: د.حسام الخطيب، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، د.ت، ص 140 وما بعدها.

ومن المفيد أن أذكر أنّ المنهج الّذي ستقوم عليه هذه الدّراسة هو تتبّع ثنائيّة الحياة والموت في أشعار أبي العتاهية الزّهديّة، ودراستها وتحليلها، من خلال استنطاق نصوصه الشّعريّة، واستجلاء ما توحي به، أو تنطوي عليه من إحساس أو رؤية لهذه الثّنائيّة، وإخضاعها للدّرس الفنّيّ الموضوعيّ، في سبيل استكشاف مضمونها الفكريّ والنّفسيّ على حدٍّ سواء، ولعلّ من المفيد أيضاً أن أبيّن أنّ غاية هذه الدّراسة هو التّعمّق في فهم النّصّ، من أجل إدراك أفضل للمفاهيم والأحكام، الّتي تشكّل رؤية الشّاعر العميقة، وتصوّراته الأكيدة للموت والحياة.

ويبدو أنّ ثنائيّة (الموت والحياة) يتعانق طرفاها، ويتلازمان في الوجود الإنسانيّ وغير الإنسانيّ على الأرض، إذ إنّ الإنسان يعيش الموت في الوقت نفسه الّذي يعيش فيه الحياة؛ لأنّ الحياةَ في حقيقتها سيرٌ دائم نحو الموت في طريق التّلاشي والانتهاء، كما أنّ الموت هو الّذي يعطي الحياة معناها وأهميّتها؛ لأنّه يضع لها حدّاً، وينهيها، فنحن نشعر بقيمة الحياة الّتي نعيشها؛ لأنّنا ندرك أنّ الموت سينهيها ويزيلها، كما أنّنا نشعر بمعنى الموت وأهميّته وقيمته؛ لأنّه يشكّل لنا خطراً جسيماً يهدّد وجودنا، ويفضي بنا إلى الهلاك. وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الدّراسة اتّجهت اتّجاهاً مماثلاً، إذ تعانقت فيها القضايا الموضوعيّة بالقضايا الفنّيّة، في سبيل الوصول إلى ما يهدف إليه الشّاعر ويراه ويعبّر عنه، أو بعبارة أدقّ، ما في شعره من رؤى ومواقف تجاه الموت والحياة.

أوّلاً- موقف الشّاعر من الحياة:

وقف أبو العتاهية في أشعاره الزّهديّة أمام الحياة وقوفاً متأنّياً، فتمثّلت له في الدّنيا، والدّهر، والزّمان، والأيّام، وظهر في هذه الوقفة ذامّاً لها، متوجّساً خائفاً منها، ناهياً عن الإقبال على ملذّاتها، محذّراً من الوقوع في غرورها، داعياً إلى التّصبّر على نوائبها، ومواجهة نكباتها وتقلّباتها، وليكن فيما يأتي تفصيل ما أجملت.

1- النّهي عن الإقبال على الدّنيا والتّمسّك بنِعَمِها الزّائلة:

يكاد أبو العتاهية لا يفارق هذه الفكرة في أشعاره الزّاهدة كلّها[1]، فهو ينهى الإنسان عن عشق الدّنيا، ويبيّن أنّ عشق الدّنيا من جهد البلاء؛ لأنّها تجعل عاشقها يتذوّق المرارة فيها، ويشعر فيها بالتّعب والعناء؛ ولذلك فمن الواجب عليه ألاّ يتخايل في ثيابه الزّاهية، وأن يتذكّر دائماً أنّه مخلوق من الطّين والماء. إنّ الدّنيا عند أبي العتاهية ليست باقية، وليس يخلد من يتمسّك بها، ويتعشّقها، وهي فانية؛ ولذلك فهو ينهى أخاه الإنسان عن الإقبال عليها، والانخداع بملذّاتها، على نحو ما يظهر في قوله[2]:

لَعَمْـرُكَ مَـا الـدُّنيَا بِـدَارِ بَقَـاءِ كَفَـاكَ بِـدَارِ المَـوتِ دَارَ فَنَـاءِ
فَـلا تَعْشَـقِ الـدُّنيَا أُخَـيَّ فَإِنَّمَـا تَـرَى عَاشِـقَ الـدُّنيَا بِجُهْـدِ بَـلاءِ
حَلاوَتُهَـا مَمْزُوجَـةٌ بِمَـرَارَةٍ وَرَاحَتُهَـا مَمْزُوجَـةٌ بِعَنَـاءِ
فَـلا تَمْـشِ يَومَـاً فِـي ثِيَـابِ مَخْيَلَـةٍ فَإِنَّـكَ مِـنْ طِـينٍ خُلِقْـتَ وَمَـاءِ

ويبدو أنّ هذا المعنى أو هذه الفكرة قد تلقّفها منه أبو العلاء المعرّيّ بعد قرنين من الزّمان، وصاغها بقالب روحه ونفسه، فجاءت حكمة بالغة، حفظها النّاس، وتمثّلوا بها على مرّ العصور وكرّ الدّهور، وهي قوله[3]:

خَفِّـفِ الـوَطْء مَـا أظُـنّ أدِيـمَ الـ أرْضِ إلاّ مِـنْ هَـذِهِ الأجْسَـادِ

ويؤكّد أبو العتاهية فكرته الّتي تركّز على أنّ الإنسان مخلوق من الماء والتّراب؛ ولذلك فهو ينهى النّاس عن الفخر بأحسابهم وأنسابهم، فلا تفاخر بينهم طالما أنّهم جميعاً من طينة واحدة، ولعلّ هذه الفكرة الّتي تدور في فكر الشّاعر ووجدانه،

([1]) انظر: أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (ت 213 هـ)، أشعاره وأخباره، الديوان، تحقيق: د.شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ- 1965م، الصفحات:2-35،25،12،8،3-93،59،49،43،37، 95، 116،143، 166 وغيرها.

([2]) الديوان: ص 2-3.

([3]) المعري، أبو العلاء، ديوان سقط الزند، تحقيق: د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، ط1، بيروت، 1998م، ص50.

تعبّر تعبيراً واضحاً عن فكرة المساواة بين جميع البشر، فالنّاس جميعاً متساوون في خَلْقِهم، ولافرق بينهم إلاّ في العمل، يقول أبو العتاهية[1]:

لا يَفْخَـــرِ النَّـــاسُ بِأَنْسَـــابِهِمْ فَإِنَّمَـــا النَّـــاسُ تُـــرَابٌ وَمَـــا

ويبدو أنّ إلحاحه على هذه الفكرة مستمدّ من شعوره بالنّقص؛ لأنّه وضيع النَّسَب، قليل الحَسَب، وهذا ما ذهب إليه أحد دارسيه، إذ يقول: " وإذا ذكرنا أنّ أبا العتاهية نشأ فقيراً محروماً، يحسّ بالضّعة والنّقص، أدركنا مصدر غلوائه في تحقير الدّنيا وذمّها ... إنّه يسخّر بيانه القويّ المعبّر الطّيّع من أجل إرهابهم، وتشخيص آلام الحياة وشقائها وتفاهتها.." [2].

2- الحياة مليئة بالهموم والأحزان، وهي تؤدِّب أهلها:

يرى أبو العتاهية، بعد طول تفكير، أنّ الدّنيا ليس فيها ما هو جديد، فالجديد فيها تُصيّرُه قديماً بالياً، وأنّها تدور بأُناسها، فلا تثبت على حال، بينما ينشغل أهلها بالسّعي وراء شؤون حياتهم؛ ولذلك كلّه فإنّ هذه الدّنيا تنغّص عليهم حياتهم، وتبلوهم بالمصائب، وتفجعهم بالنّوائب، وتتركهم عائمين في بحر من الهموم والأحزان، فهو يقول[3]:

فَكَّـــرْتُ فـــي الـــدُّنيَا وَجِـــدَّتِهَا فَـــإِذَا جَمِيـــعُ جَدِيـــدِهَا يَبْلَـــى
وَإِذَا جَمِيـــعُ أُمُورِهَـــا عُقَـــبٌ بَـــينَ البَرِيَّـــةِ قَلَّمَـــا تَبْقَـــى
وَبَلَـــوتُ أَكثَـــرَ أَهلِهَـــا فَـــإِذَا كُـــلُّ امـــرِئٍ فـــي شَـــأنِهِ يَسْـــعَى
مَـــا زَالَـــتِ الـــدُّنْيَا مُنَغِّصَـــةً لَـــمْ يَخْـــلُ صَـــاحِبُهَا مِـــنَ البَلْـــوَى
دَارُ الفَجَـــــائِعِ والهُمُـــــومِ وَدَا رُ البَـــثِّ والأَحْـــزَانِ وَالشَّـــكْوَى

([1]) المصدر السابق: ص 8. وما: أصلها: ماء، خففت فيها الهمزة.

([2]) عانوتي، أسامة، أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي، منشورات المكتبة الأهلية، ط1، بيروت، 1962م، ص 123-124.

([3]) الديوان: ص9.

إنّ أبا العتاهية يصوّر الحياة تصويراً قاتماً متشائماً، إذ يجعل مَنْ يعيشها يشعر بالتّعب والإعياء، ويسيطر عليه الإرهاق، من كثرة الفجائع والهموم والأحزان الّتي تحيط به، لدرجةٍ تجعل لسان حاله يقول: "أعتقد أنّني عشت حياتي بطريقة أرهقتني، حتّى أصبحت أحسّ أنّي لا أسير مع عمري، ولكنّي أحمله كصخرة فوق رأسي" [1].

والحياة عند أبي العتاهية هي (الدّنيا)، و(الزّمن أو الزّمان)، على نحو ما ذكرت في موطن سابق؛ ولذلك فهو يرى أنّ هذه الحياة تؤدّب أهلها، من خلال المصائب الّتي تحملها إليهم، وتتركهم يتقلّبون في ساحة الهموم والأحزان، إنّها توقظهم من غفلاتهم، وتنبّههم إلى مصيرهم، لكنّ النّاس في هذه الدّنيا لا ينتبهون، وعن مصيرهم الحتميّ يتغافلون، فتراهم يتنافسون ويتنازعون من أجل أعراض الدّنيا الزّائلة، وهم يتعبون أنفسهم في سعيهم نحو الغنى والثّراء، ويرجون من الدّهر ما ليس يعطيه، على نحو ما يظهر في قوله[2]:

إنَّ الزَّمـــــانَ لأهلِـــــهِ لَمُـــــؤَدِّبٌ بِصُـــــرُوفِهِ ومُـــــيَقِّظٌ ومُنَبِّـــــهُ

ولقَــدْ أرَاكَ تَعِبْــتَ فــي طَلَــبِ الغِنَــى شَــرَهاً ولــيسَ يَنَالُــهُ مَــنْ يَشْــرَهُ

وَأَرَاكَ فـــي الـــدُّنيَا وأنـــتَ مُنَـــازِعٌ ومُنَـــافِسٌ ومُمَـــازِحٌ ومُقَهْقِـــهُ

ويلحّ أبو العتاهية على هذه الفكرة إلحاحاً بيّناً، فهو يرى أنّ الزّمان حكيم بليغ، وهو كالشّاعر أو الخطيب، الّذي يحاول أن يؤدّب سامعيه، من خلال ما يقدّم لهم من مواعظ وعِبَر، وما يأتي به من صروف وتقلّبات، وما يخلّفه في أهله من هموم وأحزان، وكذلك فإنّه يرى أنّ النّاس في هذه الحياة لا ينالون منها إلا الهمّ والغمّ والنّصَب، وأنّهم معها في بلاء وكدّ واكتئاب، فأيّام العمر مقسومة بين السّخط والرّضا،

(1) الشناوي، كامل ، بين الحياة والموت، دار المعارف بمصر، د.ت، ص 47.

(2) الديوان: ص 409.

وبين هاتين الحالين يكون مصير الإنسان متأرجحاً بين الوعد والوعيد، وبين الأمل والقنوط[1].

إنّ هذه النّظرة التّشاؤميّة إلى الحياة تجعل صاحبها يهجر ملذّات الدّنيا، ويستنكر مباهجها، ويرى جمالها قبحاً، وتضيق نفسه بحياته وما يعتورها من هموم وآلام وأحزان، لكنّ الأمل هو الّذي يبعث في الإنسان الإقبال على الحياة، ويبدو أنّ الطّغرائيّ قد تنبّه إلى هذه القضيّة إذ يقول[2]:

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضْيَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأَمَلِ

3- عدم الغرور بالحياة، والنّهي عن تعظيمها:

لعلّ من أهمّ القضايا الّتي جاء بها الإسلام مسؤوليّة الحياة، فالإنسان مسؤول عن حياته، بما فيها من مقوّمات وإمكانات ومتع وملذّات، وقد صرّح القرآن بذلك في قوله Y: (**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**)[3]، وكذلك في قوله I: (**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**)[4]، ويبدو أنّ هذه المسؤوليّة الّتي أوكلها الخالق إلى المخلوق، قد فرضت على الإنسان أن يعيش حياته بإيجابيّة ورضا، فيندفع في إعمارها، ويبنيها بناءً يرتضيه، لكنّ أبا العتاهية يقف موقفاً مخالفاً، فهو، في شعره الزّاهد، يحثّ النّاس على عدم الغرور بالدّنيا، وينفّرهم من بنائها وإعمارها، وليس أدلّ على ذلك من صيحته الّتي يطلقها، مخاطباً فيها النّاس أجمعين، الّتي فيها يقول[5]:

لِدُوا للمَوتِ وابنُوا للخَرَابِ فَكُلُّكُمُ يَصِيرُ إلى ذَهَابِ

([1]) انظر: الديوان، الصفحات: 27، 33، 35، 40 ،69 وغيرها.

([2]) الطغرائي، الحسين بن عليّ (ت 513 هـ)، الديوان، تحقيق: علي جواد الطاهر، ود.يحيى الجبوري، دار القلم، ط2، الكويت، 1983م، ص 306.

([3]) سورة الملك: الآية 2.

([4]) سورة الإسراء: الآية 36.

([5]) الديوان: ص 33.

لِمَـــنْ نَبْنِـــي ونَحْـــنُ إلـــى تُـــرَابٍ نَصِـــيرُ كَمَـــا خُلِقْنَـــا مِـــنْ تُـــرَابِ

إنّ أبا العتاهية في موقفه هذا يبدو سلبياً، فالحياة عنده لا تستحقّ من أهلها أن يعمروها، والدّنيا ذاهبة لا محالة؛ ولهذا وذاك يرى أنّ من الواجب على النّاس أن يهجروها، وأن ينشغلوا بالآخرة، وأظنّه نسي القول المأثور: "**اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً**"، فأبو العتاهية لايقيم هذه المعادلة، ولا يؤمن بها، وإنّما يريد من النّاس أن يتركوا بناء الدّنيا وإعمارها، وأن يترقّبوا الموت الّذي يبيد كلّ شيء في هذه الحياة، ويخرّبه تخريباً.

وهاهو يستنكر فعل الّذين يأمنون الأيّام، ويستطيبون العيش في هذه الدّنيا، ويتعجّب تعجّباً شديداً ممّن يريدون البقاء فيها، ويتمسّكون بسبل الحياة، وهو يرى أنّ المصائب لاتنفكّ تكيد لهم، وأنّ أمنياتهم لن تتحقّق، وآمالهم ستتحطّم على صخور الواقع والحياة، فهو يقول مخاطباً الإنسان[1]:

تُرِيْـــدُ بَقَـــاءً والخُطُـــوبُ تَكِيْـــدُ ولَـــيْسَ المُنَـــى لِلْمَـــرْءِ كَيْـــفَ يُرِيْـــدُ
ومَـــنْ يَـــأْمَنِ الأَيَّـــامَ أمَّـــا اتِّسَـــاعُهَا فَخَبْـــلٌ وأَمَّـــا ضِـــيْقُهَا فَشَـــدِيْدُ
ومِـــنْ عَجَـــبِ الـــدُّنْيَا يَقِيْنُـــكَ بِالفَنَـــا وأَنَّـــكَ فِيهَـــا لِلبَقَـــاءِ مُرِيْـــدُ

ويبدو أنّ روح الإنسان هي الّتي تشدّه إلى الحياة، هذه الرّوح الّتي هي "شيء مختلف تماماً، إنّها قوام مستقلّ، وتأتي من عالم أنواعها المتجانسة، وهو عالم مختلف عن القسم الّذي تنتمي إليه الأرض ... وليس للرّوح أيّ شأن بالفكر الدّنيوي" على حدّ تعبير ريتشارد شتاينباخ[2]، وأبو العتاهية يخاطب الإنسان صاحب هذه الرّوح، ويقول له: إنّه مرتهن في هذه الحياة، ومأسور فيها لتعاقب اللّيل والنّهار، على الرّغم من أنّ الموت يترصّده في اختلافهما، آناء اللّيل وأطراف النّهار؛ ولذا فعلى المرء أن يعيش

(1) الديوان: ص 126–127.

(2) شتاينباخ ريتشارد، معنى الحياة والموت، ترجمة: هدى موسى، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، 1990م، ص9.

حياته ساعة بساعة، وألاّ يدفعه الأمل إلى التّمسّك في الدّنيا، والغرور بها، وبما فيها من ملذّات، فهي مولّية، وهذا الأمر يعرفه من له خبرة بالحياة وتقلّباتها، فهو يقول[1]:

يَا صَاحِبَ الرُّوحِ ذِي الأَنْفَاسِ فِي بَدَنٍ ... بَيْنَ النَّهَارِ وبَينَ اللَّيلِ مُرْتَهَنِ

لَقَلَّمَا يَتَخَطَّاكَ اختِلافُهُمَا ... حَتَّى يُفَرِّقَ بَينَ الرُّوحِ والبَدَنِ

وإنَّمَا المَرْءُ فِي الدُّنيَا بِسَاعَتِهِ ... سَائِلْ بِذَلِكَ أهلَ العِلْمِ بِالزَّمَنِ

أَلَسْتَ يَا ذَا تَرَى الدُّنيَا مُوَلِّيَةً ... فَمَا يَغُرُّكَ فِيْهَا مِنْ هَنٍ وَهَنِ

وتدور هذه الفكرة كثيراً في زهديّات أبي العتاهية، فهو يؤكّد أنّ الزّمان يغرّ الإنسان، ويذيقه المكروه من مصائبه ونكباته، وأنّ الدّنيا تحيّر من يحبّها، ويُقْبِل عليها؛ لأنَها دَنِيَّة، تُورِث التّضاغن بين النّاس، وتتركهم أعداء متصارعين[2].

أمّا تعظيم الدّنيا فإنّ أبا العتاهية يرفضه، وينهى عنه؛ لأنّه يراها صغيرة حقيرة، لا تستحقّ من أهلها هذا التّعظيم والإجلال، فهو يقول[3]:

لا تُعْظِمِ الدُّنيَا فَإنَّ جَمِيعَ مَا ... فِيْهَا صَغِيرٌ، لَو عَلِمْتَ، حَقِيْرُ

وهو يرى أنّ الدّنيا مهما سما بها أهلها، فإنّها ستهوي بهم إلى أسفل الدّركات؛ لأنّها برّاقة خدّاعة، ولا تستحق منهم أيّ تعظيم أو اهتمام، ويبدو أنّه اتّخذ هذا الموقف تمثّلاً لقوله Ψ: (**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)**[4]،على نحو ما يظهر في قوله[5]:

رَأَيْتُ بَنِي الدُّنيَا إذَا مَا سَمَوا بِهَا ... هَوَتْ بِهِمِ الدُّنيَا عَلَى قَدْرِ مَا سَمَوا

([1]) الديوان: ص 397–398.

([2]) انظر: الديوان، الصفحات: 400، 416، 428، 431، 433، 434.

([3]) الديوان: ص 143.

([4]) سورة آل عمران: الآية 185.

([5]) الديوان: ص 429.

إنّ هذه النّظرة إلى الدّنيا عند أبي العتاهية تعكس رؤيته نحو الحياة، فهو يراها خادعة تغري مَنْ يُقبِلُ عليها إقبالاً كبيراً، وتقوده إلى الأحزان والتّهلكة، وتفضي به إلى الموت.

4- التّصبّر والتّعزّي والالتجاء إلى الله:

الحياة البشريّة حافلة بالكثير من ظواهر التّعب والألم والضّيق والمعاناة، وهذه الأشياء الّتي يواجهها الإنسان تدفعه إلى التّصبّر عليها؛ من أجل أن تستمرّ الحياة، والإنسان في الوقت ذاته يكون مستعدّاً للتّضحية بأغلى ما يملك، في سبيل تحقيق ما يصبو إليه؛ ولذلك يجد نفسه مرغماً على مواجهة مصاعب الحياة ومتاعبها، صابراً عليها، متعزّياً بما يحققّه من إنجازات، وما يصل إليه من طموحات.

ويبدو أنّ أبا العتاهية كان مدركاً هذه الحقيقة؛ ولذلك فإنّه دعا الإنسان إلى الصّبر على المصائب الّتي يأتي بها الزّمان، وحثّه على التّجلّد، وطلب إليه التّعزّي بفقد رسولنا الكريم محمّد ρ، فإنّ المصاب مهما عَظُمَ يكون مصابنا بفقد النبي ρ، أعظم منه وأشدّ إيلاماً لنفوسنا، ولعلّ أبا العتاهية استمدّ هذه الفكرة الأخيرة من المقولات الشّعبيّة، إذ يقول النّاس: **"لا تستعظم شيئاً فإنّ هناك ما هو أعظم منه"**، يقول أبو العتاهية[1]:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وتَجَلَّدِ واعْلَمْ بِأنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

أَوَمَا تَرَى أنَّ المَصَائِبَ جَمَّةٌ وتَرَى المَنِيَّةَ لِلعِبَادِ بِمَرْصَدِ

مَنْ لَمْ يُصَبْ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيْبَةٍ؟ هَذَا سَبِيلٌ لَسْتَ فِيهِ بِأَوحَدِ

وإِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّداً بِمُصَابِهِ فَاذكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

ويحثّ أبو العتاهية حثّاً قويّاً على التّصبّر والاحتساب، فهو ينفي قدرة بني البشر على مغالبة الشّهوات والمغريات، إن لم يكن الإنسان يُعِدّ لها العدّة الملائمة، وليست تلك العدّة سوى الصّبر والاحتساب، كما يرى أنّ المصائب مهما عظمت

(1) الديوان: ص 110-111.

وجلّت، فإنّها تهون عند ارتجاء الثّواب والأجر، ويبدو أنّه، في هذه الفِكَر، متأثّر تأثّراً واضحاً بما جاء في القرآن الكريم، ومنه قوله I: (**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))** [1].

إنّ أبا العتاهية يقدّم خلاصة تجربته في هذه الحياة، فيخاطب الإنسان ناصحاً ومنذراً في الوقت نفسه من الأخطار المحدقة بالإنسان إن لم يكن صبوراً محتسباً منيباً إلى الله Y، فهو يقول[2]:

وَلَسْتَ بِغَالِبِ الشَّهَوَاتِ حَتَّى ... تُعِدَّ لَهُنَّ صَبْراً وَاحْتِسَابَا

فَكُلُّ مُصِيبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ ... تَخِفُّ إِذَا رَجَوْتَ لَهَا ثَوَابَا

ويرى أبو العتاهية أنّ على الإنسان أن يصبر على حوادث الدّنيا الّتي تغمّه وتتعبه، ويؤكّد حقيقة مفادها أنّ النّاس لا يمكن أن يكونوا جميعاً راضين عن حياتهم، وليسوا جميعاً معجبين بكل ما تأتي به الأيّام؛ ولذلك فإنّ هذه الأيّام تلعب بالإنسان لعباً، إذ إنّها تعطيه كثيراً حيناً، وتسلبه كثيراً حيناً آخر، وإذا بقي الإنسان يتعجّب من صروف الزّمن، فإنّ تَعَجُّبَهُ سيطول كثيراً، ويبدو أنّ أحد الباحثين المحدثين استمدّ من الشّاعر هذه الرؤية إذ يقول: " تقسيمات الزّمن لعبة مسلّية ابتدعها أناس ضائعون؛ لوضع علامات مميّزة على الطّريق الّتي تعبرهم بحياديّة مقلقة وإهمال غريب، هي محطّات على خطّ قطار لا يتوقّف، يصعد مَنْ يصعد، ويسقط مَنْ يسقط، وهو يابس رأسه، رافع أنفه، ماضٍ في غاية مجهولة وإلى وجهة غير معلومة، فالثّانية والدّقيقة

([1]) سورة البقرة: الآيات: 155–157.

([2]) الديوان: ص20.

والسّاعة واليوم والشّهر والفصل والسّنة والعقد والقرن، طريقة مبتكرة لبثّ روح الحياة في جسد هذا العابر البليد العنيد" [1]. يقول أبو العتاهية[2]:

فَاصْبِرْ عَلَى الدُّنيَا وَطُولِ غُمُومِهَا مَا كُلُّ مَنْ فِيْهَا يَرَى مَا يُعْجِبُهْ
مَا زَالَتِ الأَيَّامُ تَلْعَبُ بِالفَتَى طَوراً تُخَوِّلُهُ وطَوْرَا تَسْلُبُهْ
مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَعَجِّباً مِنْ كُلِّ مَا تَأْتِي بِهِ الأَيَّامُ طَالَ تَعَجُّبُهْ

ولا ينفكّ أبو العتاهية من الحثّ على الصّبر وتحمّل مصاعب الحياة، فهو يطلب إلى الإنسان أن يهوّن على نفسه مضايق الدّنيا وشدائدها، وأن يرجو لها التّنفيس والانفراج[3]، ويبدو أنّ هذه الفكرة تتناصّ مع فكرة الشّافعيّ في الموضوع نفسه، إذ يقول[4]:

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ وَطِبْ نَفْساً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ
وَلا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فَمَا لِحَوادِثِ الدُّنيَا بَقَاءُ
وَلا حُزنٌ يَدُومُ وَلا سُرُورٌ وَلا بُؤسٌ عَلَيْكَ وَلا رَخَاءُ

أمّا اللّجوء إلى الله Ψ فقد تناوله أبو العتاهية في كثير من أشعاره الزّاهدة، وكان في ذلك واعظاً، فهو يحثّ الإنسان على الالتجاء إلى ربّه، واليأس من إعانة النّاس له[5]، ويشجّعه على تقوى الله Y[6]، ويبيّن له أنّ الدّنيا دار متاع ولهو

([1]) ونوس، غسان كامل، هامش الحياة .. هامش الموت، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1991م، ص 6-7.

([2]) الديوان: ص47.

([3]) الديوان: ص95.

([4]) الشافعي، محمّد بن إدريس (ت 204 هـ)، الديوان، تحقيق: يوسف علي بديوي، مكتبة دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، دمشق: 2000م، ص23.

([5]) الديوان: ص121.

([6]) الديوان: ص 128.

وغرور[1]، ويبدو أنّه يستمدّ هذه الفكرة من القرآن الكريم، وذلك في قوله I: **(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)**[2].

هكذا كان موقف أبي العتاهية من الحياة، إذ نهى عن الإقبال على الدّنيا وتعظيمها، ووَصَفَها بأنّها مليئة بالهموم والأحزان، ودعا إلى عدم الغرور بها، والصّبر على حوادثها ونكباتها، واللّجوء في ذلك كلّه إلى الله Y. ولكن كيف كان موقفه من الموت؟

ثانياً- موقف الشّاعر من الموت:

وقف الأدباء والمفكّرون والفقهاء والباحثون من الموت مواقف متنوّعة، تختلف باختلاف مشاربهم ومذاهبهم وآرائهم، فهذه الكاتبة الأسترالية (سيلفي دانيال بيدو) عبّرت عن تجربتها في قراءة الكتب الرّوحانيّة، فقالت: "لا مهرب لأحد من الموت، فالموت له صفة (كونيّة)، إن صحّ التّعبير، وبرغم ذلك فلكلّ موت مغزًى خاصّ، وله أيضاً تأثيره المميّز على الآخرين .. فنظرتنا للموت عامل حاسم في النّهج الّذي نحيا فيه حياتنا الخاصّة"[3]. لكنّ القرطبيّ يقول عن الموت: "قال العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنّما هو انقطاع تعلّق الرّوح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وانتقال من دار إلى أخرى، وهو من أعظم المصائب"[4]، أما جورج غريّب فيقول: " ليس على الموت سلطان، فالّذين كانوا قبلنا رحلوا، ونحن في إثرهم راحلون، إنّها نهاية كلّ حيّ، فالعيش حلم يمرّ، أوّله التّراب، وآخره التّراب، وجميعنا أمام الموت

([1]) الديوان: ص170.

([2]) سورة آل عمران: الآية 185. وسورة الحديد: الآية 20.

([3]) بيدو، سيلفي دانيال، كشف النقاب عن لغز الحياة والموت، ترجمة: نويل عبد الأحد، مراجعة: عيسى بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004م، ص 91.

([4]) القرطبي، محمّد بن أحمد (ت 671 هـ)، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القدس للتجارة، القاهرة، 2008م، ص6.

سواء، لا قويّ، ولا ضعيف، لا غنيّ، ولا فقير، المهمّ أن نجعل من العمل الصّالح سبيلاً إلى الخلاص"[1].

تلك هي آراء بعض المتفكّرين في الموت، فكيف كانت رؤية أبي العتاهية له؟

1- التّخويف من الموت والتّذكير الدّائم به:

يقف أبو العتاهية من الموت موقفاً فلسفيّاً متأمّلاً، وهذا التّأمّل الفلسفيّ عند الإنسان عمليّة متّصلة وفعل لا ينقطع، على حدّ تعبير أحد الباحثين[2]، ويبدو أنّ أبا العتاهية قد أكثر من الوقوف عند هذا الجانب المخيف من ثنائيّة (الحياة والموت)؛ ولذلك فإنّ أحد الباحثين المحدثين يسمّيه شاعر الموت في الأقدمين، على غرار تسمية الشّاعر الإنكليزي (كيتس) شاعر الموت في المحدثين[3]، وأولّ نظرة ينظرها أبو العتاهية إلى الموت تتمثّل في حتميّتة على بني البشر، وأنّه لا مفرّ منه، ولا نجاة من غصصه وشهقاته، فهو يرى أنّ الموت يأتي على المرء، فينهي حياته، ويقضي عليها، على الرّغم من أنّه يقدّر في نفسه تحقيق أمور كثيرة، ولكنّ قضاء الله بالموت يأبى عليه أن يتمّ أمله وتقديره، على نحو ما يظهر في قوله[4]:

أَمَـــا مِـــنَ المَـــوتِ لِحَـــيٍّ نَجَـــا كُـــلُّ امْـــرِئٍ آتٍ عَلَيـــهِ الفَنَـــا

تَبَـــــــارَكَ اللهُ وسُـــــــبْحَانَهُ لِكُـــلِّ شَـــيءٍ مُـــدَّةٌ وانْقِضَـــا

يُقَـــدِّرُ الإِنْسَـــانُ فـــي نَفْسِـــهِ أَمْـــراً ويَأْبَـــاهُ عَلَيـــهِ القَضَـــا

ويخشى أبو العتاهية الموت، ويفرق لذكره؛ ولذلك فهو لا ينفكّ يذكّر الناس به، ويخوّفهم من أهواله وسكراته، وربّما أنّه يكثر من ذلك؛ ليعزّي نفسه، ويدفن بخوفهم

([1]) غريّب، جورج، أبو العتاهية في زهدياته، دار الثقافة، ط1، بيروت، 1985م، ص 21.

([2]) انظر: إبراهيم، د.زكريا، مشكلة الفلسفة،مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، سلسلة مشكلات فلسفية (4)، ص 18.

([3]) انظر: شرف الدين، خليل، أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1987م، ص 141-142.

([4]) الديوان: ص47.

خوفه المقيم فيها، فها هو يرسّخ فكرته السّابقة الّتي تقضي بحتميّة الموت، وأنّه شرّ لا بدّ منه، ويمضي في ترهيب سامعه منه، وتخويفه من مصيره المحتوم، ويحذّره من المضيّ قُدُماً في ركوب أهوائه واتّباع شهواته، ويقرّ بعدها حقيقة وهي أنّ عمى الإنسان يكون في بصيرته وليس في بصره، فهو يقول[1]:

هُوَ المَوتُ الذي لا بُدَّ مِنهُ ... فَلا يَلعَبْ بِكَ الأَمَلُ الكَذُوبُ

وكَيفَ تُريدُ أنْ تُدعَى حَكِيماً ... وأنتَ لِكُلِّ مَا تَهوَى رَكُوبُ

ومَا تَعْمَى العُيُونُ عَنِ الخَطَايَا ... ولكنْ إنَّمَا تَعمَى القُلُوبُ

وتدور فكرة حتميّة الموت دوراناً كبيراً في أشعار أبي العتاهية الزّهديّة[2]، ويبدو أنّه متأثّر تأثّراً شديداً بما ورد في القرآن الكريم عن الموت، إذ يقول I: **(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)** [3]. كذلك فإنّ ثمّة تناصّاً بين البيت الثّالث والآية الكريمة: **(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)**[4].

ويرى أبو العتاهية أنّ الموت ظاهرة مشتركة بين جميع البشر، وأنّه يساوي بين الملك والمملوك، وبين العظيم والحقير، فهم جميعاً يسلكون المسلك نفسه، بلا تمييز أو محاباة أو مراعاة، وربما أنّ هذا الموقف لأبي العتاهية نابع من إحساسه بوضاعة نسبه، ودنوّ منزلته الاجتماعيّة، فهو بهذه الرّؤية يصل إلى ما يصبو إليه من المساواة بينه وبين الأشراف ممّن يعيشون في عصره، فهو يقول[5]:

المَوتُ بَينَ الخَلْقِ مُشْتَرَكٌ ... لا سُوقَةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ

مَا ضَرَّ أصْحَابَ القَلِيلِ ومَا ... أَغْنَى عَنِ الأَمْلاكِ مَا مَلَكُوا

لَمْ يَخْتَلِفْ في المَوتِ مَسْلَكُهُمْ ... لا بَلْ سَبِيلاً وَاحِداً سَلَكُوا

([1]) الديوان: ص 22–23.

([2]) انظر الديوان: ص 47، 64، 74، 141، 200، 373، 414.

([3]) سورة آل عمران: الآية 78، سورة الأنبياء: الآية 35، سورة العنكبوت: الآية 57.

([4]) سورة الحج: الآية 46.

([5]) الديوان: ص267–268.

وهكذا فإنّ أبا العتاهية رأى في الموت ما رآه، وخوّف النّاس منه ما أمكنه ذلك، وذكّرهم به تذكيراً مفزعاً، ولكنّه صرّح تصريحاً خطيراً، إذ يقول[1]:

وإنّي لَمِمَّنْ يَكرَهُ المَوتَ والبِلَى ويُعْجِبُنِي رَوْحُ الحَيَاةِ وطِيْبُهَا

أيَا هَادِمَ اللَّذَّاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ تُحَاذِرُ نَفْسِي مِنْكَ مَا سَيُصِيْبُهَا

إنّه يكره الموت ويحبّ الحياة؛ لأنّ هذا الموت هادم اللّذات، ومفرّق الجماعات، ولاسبيل إلى التملّص منه والهروب من دربه.

2- الشّيخوخة والمرض وشبح الموت:

الشّعراء الّذين تحدّثوا عن الشّيب والشّباب في تاريخ أدبنا العربيّ كثيرون كثرة ظاهرة، وأبو العتاهية واحد منهم، فقد بكى هذا الشّاعر على شبابه الّذي سلبه منه الزّمن، وتأسّف عليه تأسّفاً شديداً، ولكنّ ذلك كلّه لم يغنه عن الإحساس بضعف الهمّة، وانكسار النّفس، والشّعور بدنوّ الأجل؛ لأنّ الشّيب قد اشتعل برأسه ولحييه، فجعله ذلك يتمنّى أن يعود إليه الشّباب، وصارت هذه الأمنية لحناً خالداً، تردّده الألسنة على مرّ الزّمان، فهو يقول[2]:

بَكَيتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمعِ عَينِي فَلَمْ يُغْنِ البُكَاءُ ولا النَّحِيبُ

فَيَا أَسَفاً أَسِفْتُ عَلَى شَبَابٍ نَعَاهُ الشَّيبُ والرَّأسُ الخَضِيبُ

عَرِيْتُ مِنَ الشَّبَابِ وكَانَ غَضّاً كَمَا يَعْرَى مِنَ الوَرَقِ القَضِيبُ

فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوماً فَأُخبِرَهُ بِمَا صَنَعَ المَشِيبُ

ويبدو أنّ أبا العتاهية كان يرى في الشّيب نذيراً للهلاك، وناعياً ينادي على الموت[3]، فهو ينذر صاحبه بالموت والهلاك، ومن ذلك قوله[4]:

قَلَبَ الزَّمَانُ سَوَادَ رَأسِكَ أَبيَضَا ونَعَاكَ جِسْمُكَ رِقَّةً وتَقَبُّضَا

([1]) الديوان: ص48.

([2]) الديوان: ص32.

([3]) انظر الديوان: ص 37، 45، 281،192، 282، 415، 421.

([4]) الديوان: ص201.

ويفزع أبو العتاهية من الموت فزعاً شديداً، ويخافه خوفاً كبيراً، فهو يشعر أن شبح الموت يطارده في كلّ حين، ويتمثّل له وجهه في كلّ ما يحيط به؛ ولذلك فهو يذكره كثيراً، ويصوّر أهواله وآفاته، وغصصه وسكراته، وهو يبيّن أنّ الموت ينغّص عليه حياته، ويسلب صفاءها، فيجعله يشعر بالانزعاج الشّديد، على نحو ما يظهر في قوله[1]:

عِلْمِي بِأَنِّي أَذُوقُ المَوتَ نَغَّصَ لي طِيبَ الحَيَاةِ فَمَا تَصفُو الحَيَاةُ لِيَا

إنَّ الرَّحِيلَ عَنِ الدُّنيَا لَيُزعِجُنِي إنْ لَمْ يَكُنْ رَائِحاً بِي كَانَ مُغْتَدِيَا

وهاهو يرى شبح الموت يطارده صباح مساء، ويهجم على حياته، فيقضي عليها؛ ولذلك يراه فظيعاً، تفرق منه نفسه، وتذهب به روحه، فهو يقول[2]:

نَلْهُو ولِلْمَوتِ مَمْسَانَا ومَصْبَحُنَا مَنْ لَمْ يُصَبِّحْهُ وَجْهُ المَوتِ مَسَّاهُ

مَا أَقْرَبَ المَوتَ فِي الدُّنيَا وأَفظَعَهُ! ومَا أَمَرَّ جَنَى الدُّنيَا وأَحْلاهُ!

أمّا المرض والعجز فيجعلان أبا العتاهية يشعر بدنوّ الأجل، فيهرع إلى الاستغفار والإنابة إلى الله الرّؤوف الرّحيم، ففي لحظة العجز يلتجئ الإنسان إلى ربّه، طالباً عفوه، راجياً منه الصّفح والغفران، فقد قال في مرضه الّذي مات فيه[3]:

إِلَهِي لا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي

وَمَا لِي حِيْلَةٌ إلاَّ رَجَائِي وعَفْوُكَ إنْ عَفَوتَ وحُسْنُ ظَنِّي

فَكَم مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي البَرَايَا وأَنتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ ومَنِّ

وهكذا فإنّ المرض والشّيخوخة كانا نذيري شؤم عند أبي العتاهية، فهما، في رؤيته، يقوداه إلى الهلاك، فيغدو شبح الموت ماثلاً بين عينيه في كلّ حين.

3- خراب الدّيار:

([1]) الديوان: ص432-433.

([2]) الديوان: ص420.

([3]) الديوان: ص375-376.

ينظر أبو العتاهية إلى الموت على أنّه قوّة محطّمة للحياة، مخرّبة للدّيار، قاهرة للنّاس أجمعين، وهو يتساءل عن مصير الأقوام السّالفين، الّذين عمروا البلاد، وحكموا العباد، وأسّسوا لأنفسهم حضارات عريقة، لم تتمكّن من محوها عوامل الزّمن وتقلّباته، وهو يبيّن أنّ هؤلاء النّاس قد طواهم الموت، وأفنى حياتهم، وقوّض بنيانهم، وخرّب ديارهم الّتي أمست خلواً منهم[1].

ويبدو أنّ صيحته الكبرى في هذا الجانب تمثّلت في قصيدته المشهورة الّتي يخاطب بها بني البشر، فهو يبيّن أنّ توالدهم وتكاثرهم هو للموت والفناء، وأنّ ما يشيدونه من صروح وبنيان هو للدّمار والخراب، فكلّهم ذاهبون في طريق الموت والفناء، وكلّهم سيصير إلى أصله الّذي أنشئ منه، وهو التّراب، فالموت لا مفرّ منه ولا مناص، لكنّهم مغرورون بهذه الدّنيا الفانية، يتعلّلون بآمالها الكاذبة، وينغمسون في مباهجها الخدّاعة، فهو يقول[2]:

لِـــــدُوا لِلمَـــــوتِ وابنُـــــوا لِلخَـــــرَابِ فَكُلُّكُـــــمُ يَصِـــــيرُ إِلَـــــى ذَهَـــــابِ
لِمَـــــنْ نَبْنِـــــي ونَحْـــــنُ إِلَـــــى تُـــــرَابٍ نَصِـــــيرُ كَمَـــــا خُلِقْنَـــــا مِـــــنْ تُـــــرَابِ
أَلاَ يَـــــا مَـــــوتُ لَـــــمْ أَرَ مِنْـــــكَ بُـــــدَّاً أَبَيْـــــتَ فَـــــلا تَحِيـــــفُ ولا تُحَـــــابِي

ويرى أبو العتاهية أنّ الموت يمزّق النّاس تمزيقاً، ويشتّت شملهم، ويفرّق جمعهم، وأنّه يقضي على أمانيهم، ويجعل نساءهم يبكينهم بكاءً حارّاً، وذلك كلّه نتيجة حتميّة للموت والفناء، وثمرة طبيعية للحياة البائسة الغادرة، فداهية الموت أشدّ وأقوى ما يصيب الإنسان في هذه الحياة، على نحو ما يظهر في قوله[3]:

أَبَـــى المَـــوتُ إلاَّ أنْ يَكُـــونَ لِمَـــنْ ثَـــوَى مِـــنَ الخَلْـــقِ طُـــرّاً حَيثُمَـــا كَـــانَ لاقِيَـــا
حَسَـــمْتَ المُنَـــى يَـــا مَـــوتُ حَسْـــماً مُبَرِّحـــاً وعَلَّمْـــتَ يَـــا مَـــوتُ البُكَـــاءَ البَوَاكِيَـــا
ومَزَّقْتَنَـــــا يَـــــا مَـــــوتُ كُـــــلَّ مُمَـــــزَّقٍ وعَرَّفْتَنَـــــا يَـــــا مَـــــوتُ مِنْـــــكَ الـــــدَّوَاهِيَا

(1) انظر الديوان: ص405،382،378،377 ، وغيرها.
(2) الديوان: ص33.
(3) الديوان: ص434.

وتدور فكرة خلوّ الدّيار من أهلها، وخرابها، وتقويض بنيانها، دوراناً كثيراً في زهديّات أبي العتاهية، فمن تنبيهه بني البشر إلى أنّ مصير ما يبنونه إلى الزّوال والخراب والدّمار، إلى تقريره أنّ الموت يترك الدّور يباباً خراباً، إذ يجعل الأسرّة والمنابر والدّساكر خالية من أهلها وأصحابها، فيصيبها الخراب والدّمار[1].

4- الحِكَم والوصايا والوعظ والإرشاد:

سبق لي أن قلت: إنّ أبا العتاهية وقف وقفة تأمّليّة فلسفيّة أمام الموت والحياة، ومن الطّبيعيّ أن تولّد هذه النّظرة الفلسفيّة عند الشّاعر حكمة بالغة، يصوغها العقل، وتعزّزها التّجربة، فتخرج ناضجة مكتملة، تصلح أن تكون وصيّة يوصى بها على مرّ الزّمان، وهذا ما كان عند أبي العتاهية، فقد أورد في زهديّاته حِكَماً كثيرة بليغة، أوصى بها النّاس، ووعظهم وأرشدهم من خلالها إلى اتّباع الطّريق القويم؛ ولهذا فإنّ أغلب دارسيه رأوا أنّه قد أكثر من الحكمة في أشعاره الزّهديّة إكثاراً بيّناً[2].

فهاهو يصرخ في وجه مَنْ شغلته الدّنيا ببنائها وعمارها، ويخبره أنّ ما يبنيه لن يكون له، وأنّ ما يعمره سيكون لغيره، ويوصيه بالصّبر واتّباع البرّ، وكثرة النّظر والتّفكّر في أحوال هذه الدّنيا، والاعتبار ممّا تأتي به الأيّام، على نحو ما يظهر في قوله[3]:

فَيَا بَانِيَ الدُّنيَا لِغَيْرِكَ تَبْتَنِي ... وَيَا عَامِرَ الدُّنيَا لِغَيْرِكَ تَعْمُرُ

وَمَا لَكَ إلاّ الصَّبْرُ وَالبِرُّ عُدَّةٌ ... وإلاَّ اعتِبَارٌ ثَاقِبٌ وتَفَكُّرُ

ويقف أبو العتاهية واعظاً الإنسان، فيوصيه بالحذر من الموت، وتوقّع نزوله به في كل طرفة عين، ومع كل نَفَس يتنفّسه، فهو مصيبه لا محالة، وإن تحصّن منه

([1]) انظر الديوان: ص39، 41، 46، 132، 163، 180، 181.

([2]) انظر: غريّب، جورج، أبو العتاهية في زهدياته، ص 262 وما بعدها، وعانوتي، أسامة، أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي، ص 137 وما بعدها، وشرف الدين، خليل، أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، ص108 وما بعدها.

([3]) الديوان: ص170.

بكلّ الوسائل والأدوات، ويبدو أنّه يستمدّ ذلك كلّه من قوله I: **(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)**[1]، وهو يوصي الإنسان بألاّ يكون كحاطب اللّيل، ويتوّج ذلك بحكمة بليغة، أُعْجِب بها الناس وحفظوها، وردّدوها على مرّ الأيام، فهو يقول[2]:

لا تَـأمَنِ المَـوتَ فـي طَـرْفٍ ولا نَفَـسِ وَإِنْ تَمَنَّعْـتَ بِالحُجَّـابِ وَالحَـرَسِ
فَمَـا تَـزَالُ سِـهَامُ المَـوتِ نَافِـذَةً فـي جَنْـبِ مُـدَّرِعٍ مِنْهَـا ومُتَّـرِسِ
أَرَاكَ لَسْـتَ بِوَقَّـافٍ ولا حَـذِرٍ كَالحَاطِـبِ الخَـابِطِ الأَعْـوَادَ فـي الغَلَـسِ
تَرْجُـو النَّجَـاةَ وَلَـمْ تَسْـلُكْ مَسَـالِكَهَا إِنَّ السَّـفِيْنَةَ لا تَجْـرِي عَلَـى اليَـبَسِ

ويرى أبو العتاهية أنّ الموت علّة العلل الّتي لا علاج لها[3]، وأنّ كلّ إنسان سيذوق طعمه مكرهاً[4]، مهما طال عمره، وامتدّ به الزّمن[5]، وسيصير إلى القبر الّذي هو سجن شديد، ليس كمثله سجن على الإطلاق[6]؛ ولذلك فإنّه ينصح الإنسان بعدم الانخداع في الدّنيا، وألاّ يكون ألعوبة بيدها تلعب به وتخدعه، كما لعبت بمن قبله من الأقوام وخدعتهم[7].

وفي ختام الحديث عن الحياة والموت عند أبي العتاهية يمكن أن أقول: إنّ قضيّة (الحياة والموت) تجسّدت في إحساس أبي العتاهية تجسّداً قويّاً، فقد أحسّ بزوال الحياة، وأيقن بغدر الأيّام والزّمان، وأدرك أنّ الدّنيا دار هموم وأحزان، لا تحمل في طيّاتها سوى الآلام والشّرور والمتاعب؛ ولذلك فقد دعا إلى عدم الغرور بها،

(1) سورة النساء: الآية 78.
(2) الديوان: ص194.
(3) الديوان: ص208.
(4) الديوان: ص220.
(5) الديوان: ص322.
(6) الديوان: ص368.
(7) الديوان: ص346.

ومواجهتها بالصّبر، والالتجاء إلى الله Y، بينما كان الموت شبحاً ماثلاً بين عينيه، يخيفه في كلّ طرفة عين، ومع كلّ نَفَس يتنفّسه، إذ كان يرى فيه خراباً للدّيار، وزوالاً لكلّ معالم الحياة؛ ولذلك خلص من تجربته مع هذه الثّنائيّة الخطيرة إلى كثير من الحِكَم البليغة، وجعل من نفسه واعظاً ومرشداً للنّاس أجمعين، ويبدو لي أنّه كان مقتنعاً بهذه الأفكار الّتي قدّمها في أشعاره الزّاهدة اقتناعاً تامّاً، ولم يكن منافقاً في ذلك، وصحيح أنّه ورد على لسانه قوله[1]:

لَعَمْـــرُ أَبِـــي إِنَّ الحَيَـــاةَ لَحُلْـــوَةٌ وَلَلْمَـوتُ كَـأْسٌ يَـا لَهَـا مَـا أَمَرَّهَـا!

ولكنّ ذلك لا يعني أنّه كان متعلّقاً بملذّات الحياة، يعبّ منها عبّاً، ويحرص عليها حرصاً شديداً، على نحو ما رأى بعض الباحثين[2]، بل ربما كان حديثه عن الحياة والموت بكلّ تفاصيله يمثّل رؤيته الحقيقيّة لهذه الثّنائيّة الكبيرة، الّتي أقلقت كثيراً من الفلاسفة والمفكّرين على مرّ العصور.

المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

1. **إبراهيم** زكريّا، د.ت – مشكلة الفلسفة، سلسلة مشكلات فلسفيّة (4). د.ط، مكتبة مصر، القاهرة.
2. **أبو العتاهية**، إسماعيل بن القاسم (ت 213 هـ)، 1384هـ– 1965م – أشعاره وأخباره، الدّيوان، تحقيق: د.شكري فيصل، د.ط، مطبعة جامعة دمشق.
3. **إسماعيل** عزّ الدين، د.ت – التّفسير النّفسيّ للأدب. د.ط ، دار العودة، دار الثّقافة، بيروت.

([1]) الديوان: ص184.

([2]) انظر: أبو العتاهية في زهدياته: ص 87 وما بعدها – وأبو العتاهية من الرفض إلى القبول: ص164 وما بعدها – وأبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي: ص 150 وما بعدها.

4. **بيدو** سيلفي دانيال، 2004م – كشف النّقاب عن لغز الحياة والموت. ط1، ترجمة: نويل عبد الأحد، مراجعة: عيسى بلاطة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت.
5. **الخيّاط** جلال، 1975م – الشّعر والزّمن. د.ط، منشورات وزارة الإعلام العراقيّة، دار الحريّة للطّباعة، سلسلة الكتب الحديثة (88)، بغداد.
6. **الشّابّيّ** أبو القاسم، 1975م – الخيال الشّعريّ عند العرب. د.ط ، الدّار التّونسيّة للنّشر، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، تونس.
7. **الشّافعيّ**، محمّد بن إدريس (ت 204 هـ)، 2000م – ديوان الشّافعيّ. ط1، تحقيق: يوسف علي بديوي، مكتبة دار الفجر للنّشر والتّوزيع، دمشق.
8. **شتاينباخ** ريتشارد، 1990م – معنى الحياة والموت. ط1، ترجمة: هدى موسى، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاّذقيّة.
9. **شرف الدّين** خليل، 1987م – أبو العتاهية من الرّفض إلى القبول. د.ط ، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت.
10. **الشّنّاويّ** كامل، د.ت – بين الحياة والموت، د.ط ، دار المعارف بمصر.
11. **الطّغرائيّ**، الحسين بن محمّد (ت 513 هـ)، 1983م – ديوان الطّغرائيّ. ط2، تحقيق: علي جواد الطّاهر، ود.يحيى الجبوريّ، دار القلم، الكويت.
12. **عانوتي** أسامة، 1962م – أبو العتاهية رائد الزّهد في الشّعر العربيّ. ط1، منشورات المكتبة الأهليّة، بيروت.
13. **عبد الصّبور** صلاح، 1968م – قراءة جديدة لشعرنا القديم، د.ط ، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر، القاهرة.
14. **غريّب** جورج، 1985م – أبو العتاهية في زهديّاته. ط1، دار الثّقافة، بيروت.
15. **القرطبيّ**، محمّد بن أحمد (ت 671 هـ)، 2008م – التّذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. د.ط، القدس للتّجارة، القاهرة.

16. **المعرّيّ** أبو العلاء، أحمد بن عبد الله (ت 449 هـ)، 1998م – ديوان سقط الزّند. ط1، تحقيق: د.عمر فاروق الطّبّاع، دار الأرقم، بيروت.
17. **ملحس** ثريّا عبد الفتّاح، د.ت – القيم الرّوحية في الشّعر العربيّ قديمه وحديثه حتّى منتصف القرن العشرين. د.ط، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللّبنانيّ للطّباعة والنّشر، بيروت.
18. **ولك** رينيه، ووارين أوستن، د.ت – نظريّة الأدب. د.ط، ترجمة: محيي الدّين صبحي، ومراجعة: د.حسام الخطيب، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة، دمشق.
19. **ونّوس** غسّان كامل، 1991م – هامش الحياة .. هامش الموت. د.ط، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

الأطروحات الجامعيّة

20. **جياووك** مصطفى عبد اللطيف، 1968م – الحياة والموت في الشّعر الجاهليّ. رسالة ماجستير في جامعة الإسكندرية.
21. **حميدوش** منيف أحمد، 2004م – الحياة والموت في شعر الشّريف الرّضيّ. رسالة ماجستير في الجامعة اللّبنانيّة.
22. **عبد العال** خليل، 2010م – الحياة والموت في شعر صدر الإسلام. رسالة ماجستير في جامعة دمشق.

The lif and death of the Asceticisms of Abby AL-Ataheya (213 hijrey)

Research Summary

This is a search for the life and death of the asceticisms of Abby Al-Ataheya, in which he adopted an approach based on questioning the text and deducing the views and ideas that the poet had on the great bilateralism (life and death). So I returned to the poet's divan and followed his intellectual vision for this dualism, and found that he was standing from the life a negative attitude, as it was forbidden to turn to them, and enjoy their lamentations, and preaches not to vanity, and forbids magnification, and urges patience, and recourse to God.

But his position on death was a phobia, he was feared from it terribly, and was not forgotten, and fear of it, and see the destruction of the home, and the separation of groups, and the disintegration of relations, and it seems that his experience in life, and his sense of death, He has become a preacher through his ascetic's peoms and a guide, urging to do good, and to leave evil, and to turn away of the pleasures of the world, and not vanity of its temptations, and depicts death as a ghost among the eyes of all people.

It seems to me that Abba Al-Atheya was convinced of these visions and ideas that he was dealing with in his poetry. He was not hypocritical, he loved life and showed his hatred for it, as some researchers realized it. But it was a human tendency that moves him to enjoy the life. But he faced a strong confrontation with the remembrance of death and the subsequent of reckoning and torment, or reward and recompence.

In any case, Abu al-Atahey gave us his intellectual vision of this worrisome dualism (life and death), and he recorded in his poetry his attitude towards them. He was a ascetic in life, desirous of what a person would be after death.

Key words:(life – death – phobia – ascetic – dualism)